الجزء الثالث — المجلد الخامس والعشرون

مجلة المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٠ — ١٥ رمضان سنة ١٣٦٩

كنوز الأجداد

- ١٥ -

الجاحظ (١)

(٢٥٥)

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ، وقيل انه كان مولى ابي القَلَمّس عمرو بن قِلْع الكناني ثم الفقيمي . فهو كناني صليبة خالص النسب . وكان جده فزارة أسمر اللون وكان جمالاً لعمرو بن قلع . أطلق على عمرو اسم الجاحظ لنتوء عينيه ويقال له الحدقي . ولد من أبوين فقيرين في البصرة حوالي سنة ستين ومائة وتعلم الخط والقراءة في كتّاب ببلده وتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب في المربد واتصل بالأصمعي وابي زيد الأنصاري وابي عبيدة مَعْمَر بن المثنّى والأخفش والنظام وصالح بن جناح . وحدث عن ثمامة بن أشرس النميري

---

(١) اتبعنا الطريقة التي وضعناها لهذا الكتاب في الترجمة للجاحظ ، ومن أراد التوسع في الكلام عليه وعلى ابن المقفع وأبي حيان التوحيدي فليرجع الى كتابنا أمراء البيان ففيه افاضة حسنة في أخبارهم وآثارهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويزيد بن هرون والسري بن عبدويه والقاضي ابي يوسف والحجاج بن محمد . وكان كل واحد من هؤلاء الأعلام فرداً في صناعته .

أحكم الجاحظ فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة وهو في ميعة الشباب ، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين فكان صاحب مذهب وسميت فرقته الجاحظية وهو من الطبقة السابعة من المعتزلة . والغالب انه كان يعرف الفارسية ، وكان مولعاً بالكتب حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

ما أحب الجاحظ ان يفوته شيء من أنواع العلوم والآداب فنظر في كل علم وأخذ عن كل من اعتقد ان عنده من المعارف ما ليس عند غيره ، ودأب الى هذا يسأل جميع الطبقات عما يهمه ويريد أن يتفهمه فيسترشد بآراء الحراس ويتحدث الى الحواة والجزارين والعطارين والنجارين والصيادين والأكارين والقابلات ويسأل الحشوة وأرباب البطالة وقد يأخذ بآراء المجربين اذا رووا له غرائب قبلها عقله أو يردها اذا كانت حديث خرافة ، ويتحدث الى كل من عنده « طرائف من الكلام ، وعجائب من الأقسام » روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن فالحكمة ضالته يلتقطها حيث وجدها . كتب في هذا يقول عن نفسه : ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد علمت ، من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم ان طول دراستها انما هو تصفح عقول العالمين ، والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم .

مزية الجاحظ التي تفرد بها استعماله عقله في الرأي المعروض يتناول كل ما يقع عليه الحس وتنظره العين وتتشوف اليه النفس وليس نظره فيما عانى النظر المجرد بل نظر « الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة وأبرزها الامتحان وكشف قناعها البرهان » فهو مجموعة تفكير والتفكير « مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح في الصدور ، وعزاء في النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذو العقل » . « وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً ، كما أن اكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم » « فلا تذهب الى ما تريك العين ، واذهب الى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » « ولعمري ان العيون لتخطئ ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل اذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس » .

دعا الى المعاينة ودعا الى الشك وقال اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لما تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلماً » وقال : « وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه ، واغفال العقل من التمييز حتى قالوا الحفظ عَذْقُ الذهن لأن مستعمل الحفظ لا يكون الا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة ، والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ » .

ومن أجل هذا كتب له ردّ كل خرافة قال بهـا المتكلمون ، أي رجال الدين ، وأصحاب علوم الدنيا ، وزيف بعض أنظارهم فهو في كل ما خطته يراعته فوق العلماء وطريقته في تأليفه « لا يصل الصدق بالكذب ولا يدخل الباطل في تضاعيف الحق ، ولا يتكثر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على ايضاح الحق الا بالحق ، وعلى ايضاح الحجة الا بالحجة ، ولا يستميل الى دراسة تآليفه واقتنائها ، ويستدعي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى تفضيلها والاشادة بذكرها بالأشعار المولدة والأحاديث الموضوعة والأسانيد المدخولة وبما لاشاهد عليه الا دعوى قائله ، ولا مصدق له الا من لا يوثق بمعرفته » .

قال ابن الخياط : ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة وكتابه في الأخبار واثبات النبوة وكتابه في نظم القرآن علم ان له في الاسلام غناء عظيماً ، لم يكن الله عز وجل يضيعه له . ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وانه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه في اثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة اه .

من كان يظن ان الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين وعلى المجوس والنصارى واليهود وعلى الفرق الاسلامية وهو في أصله امام دبني وصاحب مذهب انه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل والأعناب وفي كل ما يعرض له من الموضوعات في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والجغرافية والتاريخ الى ما عرف في عصره من أنواع العلوم ، ومن جملة ما يتقن من الفنون الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعة وعلم النفس والأخلاق والمعادن والأصباغ والتجارة وحيل اللصوص وأخبار الخلعاء والمجان ، ورسائله كثيرة لا يخطر ببالك أنه يكتب فيها . سئل ابو العيناء الراوية الأخباري : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن . وقال المسعودي : لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ ... وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . ووصفه ثابت بن قرة « انه خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدره المتقدمين والمتأخرين ، ان تكلم حكى سحبان وائل ، وان ناظر ضارع النظام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في الجدل ، وان جد خرج من مَسك عامر بن عبد قيس وان هزل زاد على مزبد ، حبيب القلوب ، ومَراح الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع الا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له منقوص الا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ منه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، ووطئ الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب » .

نعم « كان نسيج وحده في جميع العلوم » وقال ابن سنان الخفاجي « فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره » وقال ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » .

ونقل عن جالينوس واقليمون وحنين بن اسحق وبختيشوع وسالويه وماسرجويه وغيرهم من علماء عصره أما أرسطو فقد أنحى عليه بما اخترعه من التحريف في الحيوان . وكان شعاره « اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم انه ما يريد ان يفلح » وقال : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً قال : فلو ان علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلاً .

لم يضع ابو عثمان كتاباً خاصاً في الفلسفة لكن تآليفه تنم عن طول باعه فيها وهل الفلسفة الا علم العقل وعقل الجاحظ كان يحكّمه في كل شيء . وما قام في الاسلام عالم جمع في صدره العلوم الدينية والدنيوية مثله ولا من ألف هذا القدر من التآليف الممتعة ، فقد ألف ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة منها ما كسره على بضعة مجلدات ومنها ما كان في رسالة صغيرة ، ضاع أكثرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا سيما كتب الدين لأن خصومه اثاروا عليه حرباً شعواء في عصره وبعد عصره فكان من تحيلهم على طمس آثاره أن يبيدوا كتب عدو مذهبهم، وافلت من براثنهم بعض اسفاره فكان منها كتاب الحيوان والبيان والتبيين وكتاب البخلاء الى غير ذلك من الكتب والرسائل . قال في وصف كتاب الحيوان (وهذا كتاب تسنوي فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربياً أعرابياً ، واسلامياً جماعياً ، فقد حذق طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة واشترك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » وقد ألفه وهو مريض بالفالج فأبان فيه عن سعة بحثه وتجاربه ولم يؤلف في بابه مثله حتى قال الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحيوان له وكتاب سيبويه وكتاب العين للخليل . أما البيان والتبيين فهو اول كتاب علم طلاب البلاغة بالعمل لا بالقواعد ، وبالنصوص والشواهد لا بالتعريفات المملة كما كان ممن جاءوا بعده .

كان الجاحظ من اعرف المؤلفين بأمزجة القراء ويعرف ان الجد ممل ولا بد من المرح والدعابة لئلا يسمج ، لذلك مزجه بهذه الافاضة لئلا يكون مما كتب شيء لا تهضمه النفوس . يرى ذلك ماثلاً في كتاب البخلاء وفي كتاب التربيع والتدوير الذي كتبه في احمد بن عبد الوهاب يعبث به وهو من أهم ما الف في السخرية والتهكم تجلى فيه فن الجاحظ تجليه في كل موضوع خاض غماره وتجسمت فيه خفة روحه .

ومرح الجاحظ يتجلى في جده وهزله . سأله شخص كتاباً الى بعض أصحابه فكتب له « كتابي اليك مع من لا أعرف ولا اوجب حقه فان قضيت حقه لم أحمدك وان رددته لم أذمك » . وكتب الى آخر « كتابي اليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه فافعل في أمره ما تراه والسلام » . وفي نظر الجاحظ ان الوصاة شهادة وهو اعقل من أن يشهد الزور ويبيع دينه لدنيا غيره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبينا ترى الجاحظ ينقل اليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء يروي لك نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرَّة من الموسوسين ومن كلام أهل الغفلة والتوكى وأصحاب التكلف من الحمق . يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة ويقول ولكل جنس من هذا موضع يصلح له ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل وان المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد .

ومن أعجب ما كان يأتيه في العبث بأعدائه وحساده ما رواه قال : « اني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته وفصاحته . وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب ، فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة ، فان امكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي الف له فهو الذي قصدوه وارادوه . وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب تحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من اعراضه وحواشيه كتاباً واهدوه الى ملك آخر ومتّوا اليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي ، وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد البرمكي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ، ولا نسب الى تأليفي » .

وما كان امتاع الجاحظ بما كتب هذا الامتاع الا لأنه لا يتكلف في اختيار الفاظه ويرسل النفس على سجيتها فيما يؤلف ، فجاءت تآليفه كلها نمطاً واحداً في البلاغة والفصاحة يكتب كما يتكلم من دون تزيّد ولا تعمل . وربما نسب قسم عظيم في جودة تأليفه الى امتلاكه ناصية الكلام واعطاء كل موضوع حقه من الألفاظ والمعاني . وكأنه كان يضع بعض ألفاظ او يستعمل ما لا عهد باستعماله قبله مثل قوله « القرويون والبلديون واللغويون والمعنويون » اطلق هذا على سكان الضياع والدساكر وسكان المدن والحواضر ، وعلى من يشتغلون بالألفاظ ويشتغلون بالمعاني . وكثيراً ما استعمل بعض الألفاظ العامية عند نقله روايات المنادمة لأن النكتة لا تملح الا اذا رويت بالفاظها . وتمييز الجاحظ بين حي الألفاظ وميتها ، وسهلها وعويصها سبب أول في تفوقه ببلاغته .

وملاك الأمر عنده أبداً ان يكون اللفظ سمحاً لا كزّاً والابتعاد عن المعاني التافهة والقوالب المستكرهة ولطالما اوصى طلاب البلاغة ألا يعمدوا الى استعمال اللفظ العامي الساقط السوقي ولا الوحشي الغريب لأن « الاستعانة بالغريب عجز » « الا ان يكون المتكلم بدوياً أعرابياً فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانه السوقي » والمعول عليه في هذا الباب ان « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » .

قال : وانا اقول في هذا قولاً وارجو ان يكون مرضياً ولم أقل ارجو لأني اعلم فيه خللاً ، ولكنني اخذت بآداب وجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب . وذلك انه قيل لصُحار العبْدي : ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره اياديه واحسانه ؟ قال : اما نحن فانا نرجو ان نكون قد بلغنا من اداء ما يجب علينا مبلغاً مَرْضياً ، وهو يعلم انه قد وفاه حقه الواجب وتفضل بما لا يجب . قال صُحار : كانوا يستحبون ان يَدَعوا للقول متنفَّساً وان يتركوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيه فضلاً . وان يتجافوا عن حق ان ارادوه لم يمنعوا منه فلذلك قلت أرجو فافهم فهمك الله » قال : فان رأيي في هذا الضرب من اللفظ ان اكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والعادة فيها ان الفظ بالشيء العتيد الموجود وادع التكلف لما عسى ان لا يسلس ولا يسهل الا بعد الرياضة الطويلة .

وقال ايضاً : ومتى شاكل ابقاك الله اللفظ معناه وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان ثميناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً ان يمنع جانبه من تأول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ ايضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حُبب الى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخفّ على السن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الرَّيّض ، ومن اعاره من معرفته نصيباً ، وافرغ عليه من محبته ذنوبا ، حبب اليه المعاني ، واسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع عن كد التكلف ، واراح قاريء الكتاب من علاج التفهم » . وعنده ان « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » .

قال في رسالة القيان يصف القينات في عصره : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وانما هي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله ، من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع الى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروي الحاذقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منهن اربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة ابيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، اذا ضربت بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وانشادهم مراودة ، وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها لأنها ان جفتها تفلتت ، وان اهملتها نقصت ، وان لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فالى نقصان اقرب ، وانما فرق ما بين اصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها ، فهي لو ارادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم تقدر عليها ، وان ثبتت حجة ابي الهُذَيل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلي بمجالستها عليه وعليها » .

وقال في رسالة النساء : « ورأيت أكثر الناس من البصراء بجوهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ولا بدّ من جودة القدّ وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ، ولا بد من ان تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة ، وانما يريدون بقولهم مجدولة ، جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وكأنها جان ، وكأنها جَدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والتثني في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على ان النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا تحبب على السمان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات ، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : اعلاها قضيب وأسفلها كثيب » .

وقال في عدم تغليظ حجاب النساء : ثم لم يزل للملوك والاشراف اماء تختلفن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في الحوانيت ويدخلن في الدواوين ونساء يجلسن للناس ... ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنّ وأشدّ ما يتزين به فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب ... والدليل على أن النظر الى النساء كلهن ليس بحرام ان المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك فلو كان حراماً وهي شابة لم يحل اذا غنت ، ولكنه أمر افرط فيه المعتدون حد الغيرة الى سوء الخلق وضيق العطن فصار عندهم كالحق الواجب » . وقال في كتاب النساء : « ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة او طبقتين او بأكثر ولكننا رأينا أناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن اكثر حقوقهن ، وان من العجز ان يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ولولا ان أناساً يفخرون بالجلد وقوة المنّة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخَوَر لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . قال : ونحن وان رأينا ان فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الأخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت قلت ان حق هذا أعظم فان هذه ارحم .

ومن أجمل ما وصف به قاضي البصرة قوله : كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً زميتاً ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكي فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا تحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على أخرى ، ولا يعتمد على احد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، او صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ثم يعود الى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد الى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، اذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف . فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس الا ان يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ باليسير من الكلام الى المعاني الكبيرة .

« فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه . وفي السماطين بين يديه ، سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول الى موق عينيه ، فرام الصبر على سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير ان يحرك أرنبته ، او يغضن وجهه ، او يذب باصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله واوجعه واحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى ان يوالي بين الاطباق والفتح ، فتنحى ربثما سكن جفنه ، ثم عاد الى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك . فكان احتماله اقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألحّ في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من ان يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ثم عاد الى موضعه ثم الجأه الى ان ذبّ عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه الى أن تابع ذلك ، وعلم ان فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلما نظروا اليه قال : اشهد ان الذباب أجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، قال : وأستغفر الله ثما أكثر من اعجبته نفسه فأراد الله عز وجل ان يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم اني عند نفسي وعند الناس من أرزن الناس فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ثم تلا قوله تعالى : (وان يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في اصحابه ، وكان احد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض اصحابه للمنالة » .

وبعد فقد عاش الجاحظ اذا تدبرت كتبه عيش المتفائل لا المتشائم تطلبه الخلفاء والأمراء فيتحامام ويقنع منهم براتب يعيش به وعطايا تدر عليه منهم اذا وشح تآليفه باسمائهم ، سأله أحدهم مرة اذا كان له بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما انا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، واهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا الى تسميد .

كان الجاحظ كريمًا لا يمسك مالاً فيعسر أحياناً ، وكان الى الاعتدال أقرب في جده ومناقشاته ولذلك كانت تكتب له الغلبة على خصومه ، نال منهم وما نالوا منه وضحك من عقولهم وما استطاع قط حساده ان يضحكوا منه ، طال عمره ومرض مرضًا عضالاً في عشر الثمانين وما انقطع عن التأليف والافادة ، فعلى كل طالب علم يريد الجمع بين البلاغة والعلم ان يقرأ بتدبر كل ما أبقته الأيام من كتب الجاحظ يرددها كل عام ليظل على صلة بالكمال المطلق من الآداب التي تصلح لكل عصر ، وتحلو مها تقادم العهد بواضعها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يتسع المقام لاقتباس شذرات من كتبه المطبوعة ففي المطول منها والمختصر اشياء يجدر استظهارها والرجوع اليها ، ومن هذه الرسائل والكتب « الدلائل والاعتبار » ، « المحاسن والاضداد » ، « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ، « تفضيل النطق على الصمت » ، « فصل ما بين العداوة والحسد » ، « الوكلاء » ، « الرد على النصارى » ، « طبقات المغنين » ، « ذم صناعة القواد » ، « النساء » ، « الحجاب » ، « المعاد والمعاش » ، « كتمان السر وحفظ اللسان » ، « رسالة في الجد والهزل » ، « النابئة » ، « ذم العلوم ومدحها » ، « فصول مختارة منه لعبيد الله بن حسان الخ » .

المبرّد

محمد بن يزيد بن العباس الثمالي الأزدي أبو العباس

(٢٧٥)

ولد بالبصرة ، واختلف الباحثون في لقب المبرّد فقيل انه لقب بالمبرّد لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازني : قم فأنت المبرد بكسر الراء أي المثبث للحق خرفه الكوفيون وفتحوا الراء . وقيل في سبب هذه التسمية ان صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة فكره ذلك ، فدخل الى ابي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي يطلبه فقال له ابو حاتم : ادخل في هذا ، يعني غلاف مزمّلة فارغاً فدخل فيه وغطى رأسه ، ثم خرج الرسول فقال له : ليس هو عندي ، فقال أخبرت أنه دخل اليك . فقال : أدخل الدار وفتشها ، فدخل وطاف في كل موضع في الدار ، ولم يفطن لغلاف المزملة . ثم خرج فجعل ابو حاتم يصفق وينادي على المزملة « المبرّد المبرّد » وتسامع الناس بذلك فلهجوا به وهو يمتّ بنسبه الى الأزد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اخذ عن الجرمي والمازني والسجستاني وصار امام العربية في بغداد واليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني ، وغلب عليه النحو فعرفه اكثر القدماء « بمحمد ابن يزيد النحوي » وكان فصيحاً بليغاً مفوّهاً مليح الأخبار ثقة فيما يرويه كثير النوادر فيه طرافة ولباقة ، وكان الامام اسماعيل القاضي يقول : ما رأى محمد ابن يزيد مثل نفسه ، وقيل ان الناس بالبصرة كانوا يقولون هذا . وقال هو عن نفسه وعجزه عن الكتابة مع كثرة علمه في الأدب : « لا احتاج الى وصف نفسي لعلم الناس بي انه ليس احد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة الا لقيني بها ، واعدّني لها ، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل . ولربما احتجت الى اعتذار من فلتة او التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي أقصده نُصب عيني ، ثم لا أجد سبيلاً الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجبل ، فحاولت ان أكتب اليه رُقعة اشكره فيها ، وأعرّض ببعض أموري ، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت أحاول الافصاح عما في ضميري فينصرف لساني الى غيره ، فزيادة المنطق على الأدب خدعة ، وزيادة الأدب على المنطق هُجنة » اي انه لم يكن بالكاتب الذي يرتضي كتابته ، وان كان في الأدب امام الأئمة . قال الآمدي : وهذا محمد بن يزيد المبرّد ما علمناه دُوّن له كبير شيء .

رجل أقرّ على نفسه بضعف الكتابة كان حظه منها كحظ أكثر النحويين واللغويين في المتقدمين والمحدثين ، ومع هذا ألف نحو خمسة وأربعين مصنفاً أجلّ المطبوع منها وأشهرها « الكامل » وهو كتاب ممتع يجيء مع البيان والتبيين والأمالي والأغاني ، حوى قواعد نحوية وصرفية واشارات لغوية وأدبية وتاريخية قال هو فيه : هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ، ومثل سائر وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بليغة . والنية فيه ان نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مُسْتَغْلَق ، وان نشرح ما يعرض من الاعراب شرحًا شافيًا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا وعن ان يُرجع الى احد في تفسيره مستغنيًا . وقال في خاتمة كتابه هذا : هذا كتاب قد وفيناه جميع حقوقه ، ووفَّيْنا بجميع شروطه الا ما أذهل منه النسيان ، فانه قلَّ ما يُخْلى من ذلك .

وكان جل اعتماد المبرد على الشعر الجاهلي ولم يخل كتابه من شعر المحدثين وخطبهم وان لم يكن بحجة ولكنهم يجيدون فيذكر شعرهم لجودته لا للاحتجاج به قال : وليس لقدم العهد يُفضَّل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يُعطى كل ما يستحق . وحجته في الاختيار من أشعار المولدين المستحسنة الحكيمة انه يحتاج اليها للتمثيل لأنها أشكل بالدهر ويستعار من الفاظها في المخاطبات والخطب والكتب . اي انه لم يستغن عن شعر المحدثين وخطبهم لأن خطب الجاهلية ومحاوراتها لا تكفي في تخريج الطالب في الأدب .

وأدرك المبرد ان كتابه قد يثقل على الهضم ، ولا يهتم عامة القراء لما فيه من قواعد التصريف ومشكلات النحو ، وحل الألفاظ العويصة فقال في بعض فصوله : نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئًا ، لتكون منه استراحة للقاريء ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس . فمؤلفنا اذًا كثير الأمالي ، حسن النوادر ، أملى ان المنصور ابا جعفر ولى رجلاً على العميان والأيتام والقواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهن ، فدخل على هذا المتولي بعض المتخلفين ومعه ولده فقال : ان رأيت أصلحك الله ان تثبت اسمي مع القواعد . فقال له المتولي : القواعد نساء فكيف أثبتك فيهن فقال : ففي العميان . فقال : أما هذا فنعم . فان الله تعالى يقول : « لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . فقال : وثبت ولدي في الأيتام ، فقال : هذا أفعله أيضًا ، من يكن أنت أباه فهو يتيم ، فانصرف عنه وقد أثبته في العميان وولده في الأيتام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أهم ما حوى كتاب الكامل أخبار الخوارج وشعرهم المرقص المطرب وسيرة بعض المشهورين من بلغائهم وقد استغرق ذلك جزءاً عظيماً من الكتاب . وختم باب الخوارج بقوله : وهذا الكتاب لم نبتدئه لنتصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح المقترح ما يفسخ به عزم صاحب الكتاب ، ويصده عن سَنَنه ويزيله عن طريقه ، ونحن راجعون ان شاء الله الى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فان مرَّ من أخبار الخوارج شيء مرَّ كما يمرُّ غيره ، ولو نَسَقْناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا خبر نَجدة وأبي فَدَيْك وعمارة الرجل الطويل وشبيب ، ولكان يكون الكتاب للخوارج مُخْلصاً .

وأبان المؤلف في مواطن كثيرة من الكامل انه في نقد الشعر واختيار جيده آية ومما قال : وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبَّه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبَّه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره ، وساقه برصف قوي واختصار قريب ، قال قيس بن معاذ :

واخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا
واني لأستغشي وما لي نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا

وفي هذا الشعر :

أشوقاً ولما تمضِ لي غير ليلة رويدَ الهوى حتى يغيب لياليا

قال : هذا من أجود الكلام وأوضحه معنى ، ويستحسن لذي الرُّمة قوله في مثل هذا المعنى :

أحب المكان القفر من أجل أنني به أتغنى باسمها غير مُعْجَم

ومع هذا قال بعض المتقدمين ان ذوق المبرد في الشعر غير سليم ، وقال أبو بكر بن مجاهد : ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم . وزعم بعض من ترجموا له انه كان أبخل الناس بكل شيء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وانه قال : ما وضعت بجذاء الدرهم شيئاً قط الاّ رجح الدرهم في نفسي عليه ، هذا مع سعة كان فيها ووُجْد . وقالوا كان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد في الامساك وفوقه في السعة غير ان المبرد كان يسأل سؤالاً صراحاً ، وكان ثعلب يعرّض ولا يصرّح . وقال بعضهم ولولا اني اكره أن اكون عياباً وللعلماء خاصة ، لأخبرتك عنهما (ثعلب والمبرد) من الأخبار التي تزيد على أخبار محمد بن الجهم والبرمكي والكندي وخالد بن صفوان والأصمعي في الامتاع .

ولأحمد بن عبد السلام الشاعر في مدح المبرد :

وأنت الذي لا يبلغ الوصفَ مدحه ... وان أطنب المداح مع كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان راكباً ... وأنت عديل الفتح في كل موكب
وكان أمير المؤمنين اذا رنا ... اليك يطيل الفكر بعد التعجب
وأوتيت علماً لا يحيط بكنهه ... علوم بني الدنيا ولا علم ثعلب
يروح اليك الناس حتى كأنهم ... ببابك في أعلى مُنى والمحصّب

ومطلع هذه القصيدة :

يا ابن سراة الأزد ازد شنوءة ... وازد العتيك الصدر رهط المهلب

وقال فيه أيضاً :

رأيت محمد بن يزيد يسمو ... الى الخيرات في جاه وقدر
جليس خلائف وعَذيّ ملك ... وأعلم من رأيت بكل أمر
وفتيانية الظرفاء فيه ... وأبهة الكبير بغير كبر
فينثر ان أجال الفكر درّاً ... وينثر لؤلؤاً من غير فكر
وكان الشعر قد أودى فأحيا ... ابو العباس داثر كل شعر

قوله جليس خلائف وعَذي ملك انه نبيل في أصله وفرعه وان فيه مرح الشباب وأبهة الكبراء بدون كبر وانه بليغ مفوه وانه أحيا الشعر الذي كان نسي .

كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المتعاصرين من المنافرة واشتهر ذلك حتى قال بعضهم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كفى حزناً أنا جميعاً ببلدة ويجمعنا في أرضها شر مشهد
وكل لكل مخلص الود وامق ولكنه في جانب عنه مفرد
نروح ونغدو لا تزاور بيننا وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كلقيا ثعلب والمبرد

وقال بعضهم في المبرد وثعلب :

أيا طالب العلم لا تجهلن وعذْ بالمبرد او ثعلب
تجد عند هذين علم الورى فلا تك كالجمل الأجرب
علوم الخلائق مقرونة بهذين في المشرق والمغرب

وكان المبرّد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة وثعلب يكره ذلك ، لأن المبرد حسن العبارة ، حسن الاشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعا في محفل حُكم للمبرد على الظاهر الى ان يعرف الباطن . ولما مات المبرد قال فيه ثعلب هذه الأبيات وهي لأبي بكر بن العلاف :

ذهب المبرد وانقضت أيامه وليذهبن اثر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصفه خرباً وباقي النصف منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا للدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما شرب المبرد عن قريب يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه ان كانت الأنفاس مما يكتب

ومن شعر المبرد وقد بلغه أن ثعلباً نال منه :

رب من يعنيه حالي وهو لا يجري ببالي
قلبه ملآن مني وفؤادي منه خالي

ومن شعر المبرد :

حبذا ماء العنا قيد بريق الغانيات
بهما ينبت لحمي ودمي أي نبات
أيها الطالب شيئاً من لذيذ الشهوات
كلْ بماء المزن تـ ـفاح خدود ناعمات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن عبد ربه

ابو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله بن حبيب بن حُدَيْر بن سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

(٣٢٨)

أموي أصلاً وفرعاً وبيئة ونشأة ، تخرج في الدين واللغة بعلماء بلده ، وغلب عليه الأدب فاشتهر به وقويت ملكته في الشعر والنثر باتصاله بالمنادمة مع ملكين من ملوك الأمويين في الأندلس . ولا بدّ ان تكون الأيام التي قضاها في قصر الملك خرّجته في السياسة ، وعرف آداب الملوك وما تتوقف عليه منادمتهم من الأدوات ، ومنها الموسيقى والولع بالجمال ، وقد رزق الى هذا حساً شفافاً فكان شاعراً عظيماً وقد وصفوه بأنه كان فارس حلبة الشعر في القرن الرابع في الأندلس ، ولم تكن براعته في الشعر أقل من براعته في النثر . وصفه الحميدي مؤرخ الأندلس انه كانت له بالعلم جلالة ، وبالأدب رياسة وشهرة ، مع ديانة وصيانة ، واتفقت له أيام وولايات للعلم بها نَفاق ، فساد بعد الخمول ، وأثرى بعد الفقر ، وأشير بالتفضيل اليه ، الا انه غلب عليه الشعر . وقال فيه ابن خلكان انه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس وصنف كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء .

نعم كان ابن عبد ربه مولعاً بالجمال والطرب وهو في الموسيقى من الأفذاذ العارفين بها . وذكروا انه وقف تحت روشن لبعض الرؤساء فرُشّ بماء وكان فيه غناء حسن ولم يعرف فقال :

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا البخل فى احد
لو ان أسماع اهل الأرض قاطبة أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلده صوتاً يجول مجال الروح في الجسد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لو كان «زُرْياب» حياً ثم أسمعه   لذاب عن حسد او مات من كمد
أما النبيذ فاني لست أشربه   ولست آتيك الا كسرتي بيدي

وهو شاهد على تقواه وان ليس له أرب في غير الطرب من دون ارتكاب محرم . واقتضته صناعة الشعر في صباه أن اوغل في غزله الى التي ليس بعدها فأقلع في آخر عمره عن صبوته ، وأخلص لله في توبته ، كما قالوا فيه ، ولقد اعتبر أشعاره التي قالها في الغزل واللهو ، وعمل على أعاريضها وقوافيها في الزهد ، وسماها الممحصات ، فمنها القطعة التي أولها : « هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر » فمحصها بقوله :

يا قادراً ليس يعفو حين يقتدر   ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر
عاين بقلبك ان العين غافلة   عن الحقيقة واعلم انها سقر
سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت   للظالمين فما تبقي ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة   لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قلت مبتدئا   « هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر »

وأصل الأبيات قالها ابو عمر في بعض من كان نال منه وقد أزمع على الرحيل في غداة عينها فأتت السماء في تلك الغداة بمطر جود منعته من الرحيل فكتب اليه ابن عبد ربه :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر   هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكي حذار البين ملتهفاً   حتى رثى لي فيك الريح والمطر
يا برده من حَيا مُزن على كبد   نيرانها بقليل الشوق تستعر
آليت ألا أرى شمساً ولا قمراً   حتى أراك فأنت الشمس والقمر

ثم نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد من ذلك قوله :

ألا انما الدنيا غضارة أيكة   اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال الا فجائع   عليها ولا اللذات الا مصائب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكم سخنت بالأمس عينا قريرة وقرت عيون دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهب منها فانك ذاهب

ومن شعره وهو آخر شعر قاله فيما قيل :

بَليت وأبلتني الليالي بكرّها وصرْفان للأيام معتوران
وما لي لا أبكي لسبعين حجةً وعشر أتت من بعدها سنتان

قال الحميدي وشعره كثير مجموع رأيت منه نيفًا وعشرين جزءاً من جملة ماجمع للحكم الملقب بالناصر الأموي ومن شعره السائر :

الجسم في بلد والروح في بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
ان تبك عيناك لي يا من كلفت به من رحمة منهما سهمان في كبد

ومن شعره :

ودعتني بزفرة المشتاق ثم قالت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق أفظع يوم ليتني مت قبل يوم الفراق

ومن شعره أيضًا :

ان الغواني اذا رأينك طاويًا برد الشباب طوين عنك وصالا
واذا دعونك عمهن فانه نسب يزيدك عندهن خبالا

وكتاب العقد الفريد الذي خلد ذكره كما خلد بالأغاني اسم ابي الفرج الاصفهاني قسمه على خمسة وعشرين كتابًا في كل باب منها جزآن وكل كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان ثم كتاب الفريدة في الحروب ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد ثم كتاب الجمانة في الوفود ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ثم كتاب الياقوتة في العلم والأدب ثم كتاب الجوهرة في الأمثال ثم كتاب الزمردة في المواعظ ثم كتاب الدرة في التعازي والمراثي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم اليتيمة في الأنساب والعسجدة في كلام الاعراب الى غير ذلك مما يدخل فيه الأجوبة والخطب والتوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة والخلفاء وأيامهم وأخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وأيام العرب ووقائعهم وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه وأعاريض الشعر وعلل القوافي والألحان والنساء وصفاتهن والمتنبئين والمحرورين والطفيليين والتحف والهدايا والملح والطعام والشراب وطبائع الانسان والحيوان وتفاضل البلدان .

وفق المؤلف الى هذا التقسيم والتنسيق فحبب الى عشاق الأدب تداوله . وراج في الشرق على مرّ العصور وان كان أصله من أرضه ، تسوقه مؤلفه من بضائع المشرق وأسواقه . ندر من أجادوا جمع الأدب ، والاجادة تتوقف على ذوق عالٍ ، ومادة واسعة في الشعر والخطب ، فأبان فيما نقل عن حسن اختياره واختيار الكلام كما قال المؤلف أصعب من تأليفه واختيار الرجل وافد عقله رأينا مثالاً من ذلك في الأغاني ومحاضرات الراغب وعيون الأخبار لابن قتيبة . فكتاب العقد انتقاه اذاً غربي من كلام مشارقة فجاء زبدة من أدب العرب في زهو اللغة في الجاهلية والاسلام بل معلمة من كلام أهل القرون الثلاثة الأولى منقحة مصححة . وقالوا ان الصاحب بن عباد حرص على كتاب العقد حتى حصل عنده فلما تأمله قال هذه بضاعتنا ردت الينا ، ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا ولا حاجة لنا فيه فرده . واذا ثبت حكم الصاحب على كتاب العقد فلا يعقل ان يرده بهذه السماجة وهو الذي جمع خزانة فيها ألوف من الأجزاء وبعضها قد لا يكون من الممتع ، فالعقد الفريد لا يزهد فيه الصاحب على هذا الوجه وهو مهما كان مقداره قمين ان يجد له مكاناً في رفوف خزانته العظيمة .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net